غربة الإنسان في فكر أبي حيّان

أ. عبد القادر بن عزة
جامعة مستغانم – الجزائر

تمهيد :

يقرّ الدارسون بأن العصر العباسي عصر معقد، بالغ التعقيد، ومتداخل في الوقت نفسه تداخلا مذهلا، وفي بعض الأحيان مركبا، ومن ثمّ فإنّ فهم أيّ مكوّن من مكوناته بمعزل عن المكونات الأخرى لا يمكن أن ينتهي إلى تصورات دقيقة أو كاملة.

فهناك على سبيل المثال، صراع الشيعة والعبّاسيين حول شرعية الحكم، إلى جانب صراع المعتزلة وأهل السّنة في طابعه الديني والفكري. مع طفوح فكرة الشعوبية والصّراع بين العرب والموالي.

لذا لم تختف هذه الصراعات على امتداد عصور الحكم العبّاسي فلرّبما تخف وطأة بعضها حينا، وتشتد حينا آخر أو ترجع كفة أحد الطرفين المتصارعين كفة طرف آخر لكن عنصر الإستمرار يظل السمة البارزة للعصر كله.

وبين تلاطمات أمواج هذا العصر، عاش أو صيان التوحيدي، في خضم الثورات لا تهدأ وفتن لا تنام واضطراب دائم وغليان، وأحقاد لا تبقى و لا تذر.

فسمح الطفل أوصيان بالأحداث، وأدرك أعقابها فيما بعد وشاهد بنفسه أشباها لها كما كبر، فكان لهذا كله آثار في نفسه وفي أخلاقه، فكانت بداية رحلته مع الذات المقهورة إلى جانب هذه العوامل الخارجية، فقد كان لأبي صيان التوحيدي من رهافة الحس و نصاعة الذهن وعمق الانفعال ما يجعله يستمد من هذه الويلات، غذاء لروحه و مادة لتفكيره.

فأجهز أبو حيان على التوحيد نفسه بالتشريح الباطني حتى قضى على ذاته بذاته، وليس هذا المجرد الإستمتاع والتغني بالألم، بل كان في صيانة ما يدعو إلى هذه المرارة في الشكوى. وواكبه إحساسه هذا، بأن جسامة الأحداث تنفذ من الظاهر إلى الباطن، فكأين، من حدث تافه عند الناس يصبح عنده حدث الأحداث. فما بالك وقد لقي من دنياه عنتا ليس بالهين1 حتى يصل إلى وصف هذه الحالة بقوله "أما حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها، و الآخرة لم تغلب علي لأكون من العاملين لها، وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما... وأما سري وعلانيتي فممقوتان بعين الحق لخلوهما من علامات الصدق ودنوهما من عوائق الرق... وأما سكوتي و حركتي و حركتي فآفتان محيطتان في..."2.

فزفرات هذه الشكوى تكشف لنا، مدى إطلاع التوحيدي على زيف وعبث الحياة، بعد أن صابر وألح في طلبها فضاق كثيرا بالفقر والحرمان فجاءت شكواه مرة فكثير من أصدقائه والذي طلب منهم النصيحة (مسكوية مثلا) فقد نظروا إلى الجانب الظاهري من المشكلة ولم يفطنوا إلى أصل الداء في شخصية التوحيدي.

فيما الذي روع التوحيدي إلى هذا الحد؟ وما سبب شعوره الجارف بهذا الإحساس اللغريب والمخيف الذي انعكس في كتابته حتى اعتقد الناس أن الشؤم وسوء الطالع يلازمان من يقتني أو يطالع كتبه*.

ولعل وراء هذا الإحساس لدى التوحيدي سببا أحساسا هو عجزه عن التكليف مع مجتمعه. وقد اضطر إلى التعبير عن ذلك بذكره أنه فقد وادا نجيبا. وصديقا حبيبا. وصاحبا قريبا، و تابعا أديبا، ورئيسا منيبا... أو حينما يلوح بأنه اضطر إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفيف الفاضح عند العامة والخاصة... فحينما يصرح بهذا إنما عبر عن ظواهر هذه الماساة و عن جوانب منها، أما السبب من وراء هذا الإحساس هو شعوره بالعجز عن تحقيق أي ضرب من ضروب التواصل مع الناس وإحساسه بالوحدة حتى في صميم حياته الإجتماعية، وفشله في التغلب على وساواس الوحدة والتفرد والاغتراب النفسي.

و يمكن ملاحظة هذا الإحساس بالنبذ و الخوف من المستقبل والقلق المتزايد في كثير من كتبه (كالإمناع والمؤاسة) و(أشارات الإلهية والأنفاس الروحانية). وتشير كلها إلى حالات الوصف من خلال الكلام عن الأشخاص، و شكوى الزمان لقوله "خلصي أيها الرجل من التكفف، انقذني من الفقر... أكفيني مؤونة الغذاء والعشاء..."4.

ومثل هذا الإحساس، حسنما أجهز على نفسية التوحيدي أدخله إلى دائرة الإغتراب النفسي التي أصبحت في الدراسات الحديثة ذات مكانة خاصة في إبراز معالم شخصيته.

وقد أشار د.زكريا إبراهيم حينما كتب عن التوحيدي إلى أن الفشل الذي أحاط بأبي حيان و ثبط من عزيمة، هو الذي تركه لا يتغلب على و ساوس الوحشة والتفرد والتشاؤم هو الذي أدخله في

دائرة الإغتراب"5 وقد عبر هو نفسه عن ذلك الإحساس حينما صرح في كتابه الصادقة والصديق قائلا" لقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق مستأنسا بالوحشة قانعا بالوحدة، معتادا بالصمت، ملازما للحيرة، محتملا للأذى، يائسا من جميع ما أرى ...5.

*** مستويات الغربة عند التوحيدي:**

عاش التوحيدي في بغداد (ق4هـ) حيث كانت مدينة عالمية سرعان ما يستأصل فيها ساكنوها، خصوصا إذا كانوا ممن اصطلح عليهم بالأخلاط من الأجناس والثقافات المتعارضة، لذلك لم يقنع التوحيدي برمزية الوطن المادي، ولا عذا المعنى المبتذل بدور الحضارة في عهده لذلك نراه يرفع معنى الإحساس بالغربة إلى مستوى آخر حينما يصرح في "الإشارات الإلهية" إذ يقول:" قد قيل:الغريب من حفاه الحبيب، وأنا أقول بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب*: بل الغريب من نودي من قريب...."6 .

ثم يرتفع بهذه النبرة إلى درجة عالية فيصبح " بل الغريب من هو في غربته غريب" 7.

إن هذه الصورة التي رسم خيوطها التوحيدي، قد أشارت إلى ملامح مستوى تصوري أعلى للغرفة، في عرفان الرجل، فهذا الغريب قد صارت الغعربة عنه، ذلك لأنه ارتفع فوق الغربة عن الوطن إلى معنى الغربة، بعد أن صارت الغربة نفسها وطنا له.

وهذا يرسم دائرته الحركية المتطورة المستمرة حتى يعلو فوق الوطن المادي اتستمر حركية الهلوسة الفكرية حتى يصل إلى سقف الوطن الثاني وهو الغربة، فيصبح فيه غريبا.

وهنا لا بد من الإشارة الصورة التي رسمها عبد الرحمن بدوي محقق كتاب التوحيدي"الإشارات الإلهية" لإذ يشير في مقدمة ملامح لإبي حيان التوحيدي كفنان وجودي نم والذي مثل الوجود بكل أبعاده المادية والروحنية والميتافزيقية. (ينظر مقدمة من ص)

فالبعد المادي للوجود في نظره يكرسه الزهد في الحياة والعزوف عن الدنيا وكل ما يشاهده من أحوال متعاقبة، متضاربة لا يرى مجالا للمشاركة فيها لأنه صار بمعزل عنها أو من فوق طورها أو في القليل محروصا منها.

أما البعد الروحي للوجود فيظهر في الإعتناء المستمر في معراج التطور الروحي أما البعد الثالث الميتافزيقي فيتضح أكثر بالتأمل في فكرة الفناء العام على هيئة الإنطواء للوجود كله في حضن الوجود الواحد.

ويظهر أن هذا الإستنتاج لمحقق "الإشارات الإلهية" إنما مرجعه إلى الوصف الدقيق الذي يطلقه التوحيدي في حق الغريب أفليس هو القائل ؟" فالغريب كائن يعلوه الشحوب ويغلبه الحزن، لأن نطق نطق حزنا منقطعا، وإن سكت سكت حيرانا مرتدعا، زإن قرب قرب خاضعا، وإن يظهر هذا من قسماته وملامحه الخارجية ومظهره بين الناس، أما صدى النفس الداخلية فيعبر عنه بقوله" أما هو في نفسه، فهو من أغرب في أقواله وأفعاله، وغرب في إدباره و إقباله..."9.

وهذه المعاني ذات المستويات المختلفة في سلم الغربة التي رسمها التوحيدي، حينما يلقي داخلها في النفس، فإنها تمثل أيشع أحوال الغربة، لأن أباحيان حينما شعر بهذا الغياب وكأنه أدرك شيئا مهما عن الوجد العام، الذي بدأ يسلك سبيله بدونه، والمصير يفعل فعله دون أن يكون له فيه حق الإستشارة أو التدخل حتى لا يتركه يتحدد بنفسه ومن تلقائه، وكأنه لم يشارك فيه أدنى مشاركة، وهذا الذي أرق حسب أقوال التوحيدي مضجعه، ويبرم صوانعه، ويسلك به طريقا مجهولا غير محدد المعالم. وفي آخر التطواف بفكر التوحيدي في مفهوم الغربة، ومستوياتها يمكن الإشارة إلى نقاط أبرزها:

1– إمكانية تضيف الغربة التي تحدث عنها التوحيدي ضمن دائرة الغربة ذات المنبع وما أفرزته المدينة لمتأخرة، من تعارض بين الثقافات والأجناس.

2– ضعف الوزاع الديني، وانعدام الشعور بالانتماء المحلي خاصة. عند هؤلاء المفكرين والأدباء الدين أرادوا الإندماج داخل الحياة السياسية فأحسوا بالقهر والتهميش وقد عبر التوحيدي بالغربة عن الغربة.

3– احتفاء التوحيدي في كتاباته بالأسلوب، ومحاولته توفير ايقاع داخلي صبغته معاناة على المستوى الذاتي لذلك لجأ أبوحيان غلى ضرب على الأوترا التعبير الفني ليصل إلى تحليل أعماق هذه الغربة التي شعربها، فجاءت تحليلته تعبر عن مرارة الأديب المهمش و الفيلسوف التائه والصوفي المتنكر له عن أحواله زمانه فصرح دون أن يسمعه أحد "بأن الغريب من حاصره الهم في داره"8.

الإحالات

* ذكر ابن خلعان انه جرب هذا و جربه من و فيات الأعبات ج2 ص 470.
* الشريب: النديم.

1. د.عبد الرحمن بدوي – مقدمة الإشارات الإلهية ص 10– بيروت لبنان1950–
2. أبو حيان التوحيدي – الإشارات الإلهية – تحقيق –د.عبد الرحمن بدوي ص 18.
3. د. زكريا غبراهيم – ابوحيان اللتوحيدي – ص225.
4. التوحيدي– الإشارات الإلهية ت. د. بدوي ص 83.
5. ابوحيان التوحيدي – الصداقة و الصديق–
6. د. زكاريا ابراهيم– أبوحيان التوحيدي – ص 226.
7. التوحيدي– الإشارات الإلهية – ت. د. بدوي 79.
8. المصدر نفسه– ص 16
9. المصدر نفسه– ص 80
10. المصدر نفسه– ص 135